

الفصل الخامس

نماذج من مقالات العروة الوثقى وأخبارها

نقتطف فيما يلي نماذج من المقالات والأخبار المنشورة بجريدة (العروة الوثقى) وسنضع عناوين وهوامش لبعض هذه المقطعات تيسيراً للتعريف بموضوعاتها وملابساتها.

الاستعمار في مصر

في العدد الأول الصادر في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ (٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١) مقالة تحت عنوان (مصر) حملت فيها على سياسة بريطانيا الاستعمارية في وادي النيل، ووصفت البؤس الذي عانته البلاد من الاحتلال وقالت ضمن ما قالت:

«تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية بل وصل مد نيلها إلى أراضي البلاد الغربية وتوارد إليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساغ فأترى في مغانيبها الفقراء وعز بها الأذلاء وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد إليها يجد أهلاً خيراً من أهله وسكناً خيراً من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغربية حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبليلت الألسن.

«وساد بها الأمن وعمت الراحة وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه

الممالك الأوروبية العظيمة، وكأن المتأمل في سيرها هذا يحكم حكماً ربما لم يكن بعيداً من الواقع أن عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب أو بعيد كرسى مدينة لأعظم الممالك الشرقية بل كان ذلك أمراً مقرراً في أنفُس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو ألمهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر. غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحت، فعثر العاقل وفرط المالك وأعثر المعجب وتهور الغبي وخار الأفين^(١). فنقرب البعيد وبعد القريب، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا في حواشى طوامير^(٢) الأوهام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«الحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف، ففتحت للدسائس أبواب. وأنساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات ففترق اتصال وتقطعت أوصال فضعت السلطة الوازعة ونبتت الطاعة والتهميت نيران الفتن.

«قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في إعادة شأنها الأول إلى رأى قويم وعزم ثابت ووازع قوى تدين لسلطوته النفوس وإن من ذوى الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد إليه لكن تحكم طمع وأخطأ ظن فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة.

«أشفقت دولة الإنكليز على طريق الهند كما يقال أو ظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها، فكان التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانه، وعم بعض أنواع الهون حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد إلا مسه ضرمه^(٣) ما خلا أشخاصاً قلائل، وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد.

«أليست المالية هي مرمى أنظار دول أوروبا وما وضع نظام في البلاد

(١) أفن أفنا: ضعف رأيه فهو أفين وأفون.

(٢) الطومار: الصحيفة وجمعها طوامير.

(٣) الضرم: اللهب.

ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية، اليوم رزنت بالنقص في الإيراد وحملت من تعويضات متالف الحرب^(١) أربعة ملايين من الجنيهات ورميت بنفقات جيش الحلول^(٢) وحرب السودان ومصاريف أخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازها الحاضرة.

«عقد العزم على إلغاء الجيش الوطنى وهو قوة البلاد وبه فخارها وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم عسكر مصرى وقصر الجهد عن مجارة محمد على وإبراهيم اللذين دوخا كثيراً من الأقطار بجنود مصرية.

«وأسفا على حالة الأهالى بعد هذا، حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل لكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة، ألم يحس هؤلاء ضر الفقر ألم بعضهم ناب الجوع ألم يهتك مستورهم؟ ألم يضق ذرعهم ألم يصبحوا كساء بسرابيل الكآبة عراة من أكسية المسرة؟ إن لم يكن كل هذا فقد كان جله وإن صدى أنيهم يتلى في صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون حتى لا يجد وطنى في البلاد من المهن إلا ما لا يليق بالإنكليزى تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو في البلاد الهندية.

«اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فأشتبه الأمر على العمال وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم وحكموا

(١) هي التعويضات التى أئزمت بها مصر عقب الاحتلال البريطانى بدعوى أنها مقابل الخسائر والأضرار التى لحقت بالجماليات الأجنبية فى حوادث سنة ١٨٨٢ وخاصة مذبحه الإسكندرية فى ١٠ يونيه سنة ١٨٨٢ وضرب الإسكندرية بقنايل الأسطول البريطانى فى «يوليه» من ذلك العام. ومع أن المسئول عن هذه الخسائر هو الحكومة البريطانية لأنها هى التى أحدثتها. ووقعت فيها. فإن مصر قد احتملت عواقبها وتعويضاتها الجسيمة. وقد بلغت أربعة ملايين وربع مليون جنيه.

(٢) جيش الاحتلال.

أهواءهم في أداء وظائفهم فخبطوا وخلطوا، فعمت السجون بأعيان الرعية ورفعت أذنان الكراييج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدتهم من بقايا أموالهم وثمرات كسبهم وحدث نوع من الحكم المطلق عزيز المثال بعث عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

«غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية في الإدارات وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة، فانتسح نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة وسرى التهاون إلى الدوائر العليا وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعانت اللصوص وكثر قطع الطرق في كل ناحية وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية، وبدت للناس شئون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائيتهم من التجار والربويين فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم وإشفاقهم من الضياع على رموس أموالهم وإن أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة في رأس المال من قبيل آخر واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عليهم ماشية الحراثة بعدما اغتالها التيفوس وإلى ما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التي ألفوها، فعميت عليهم السبل وضاعت بهم المسالك ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلاً، ففسدت الزراعة وانتقصت ثمراتها وانحطت أسعار المحاصيل لارتباك الأحوال إلى حد ما كان يسمع إلا في القمص وروايات القدماء، ومطالب الحكومة في ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الأغذاذ في اقتضائها، فعم العسر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيدي ملايين من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهياً وسلباً، باع الفلاح أثاث بيته وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه بعدما ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات إلا قليلا منهم الله يعلمهم.

«وزاد الويل بحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وإن ضعفت واتباع بواطل التهم وإن بعدت أو استحالت حتى أخذ الفرع من القلوب مأخذه وبلغ منها مبلغه، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده إلى السجن أو يقتضى منه فدا، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة وفي كل نهضة سقطه، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أى شقاء ينتظره الحى في حياته أشنع من هذا».

«هذا ما تشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى، هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزثوا به بعدما تكفل أجباؤهم الألوان بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضى السابقة، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد على السنة رسله، أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم تائهيين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوروبية تسميه ضيقاً وعناءً وتمنيهم بالإنتقاذ منه فيحنون إليه ويودون لو رجعوا إليه ومحسبون غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها.

«أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت ببلاده من نحو عشرين شهراً، كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شئونها، نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتنظيم طرقها وإقامة جسورها وتكثير جداولها وتقوية مواد الخصب فيها حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا أو روضة من رياض الآخرة، أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا ورث الأرض بعدهم قوم آخرون.

«فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذى لا يمثله المخاطر فى وقتنا الحاضر ولا يكفى للبدء فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر فى بلاد بنجاب (من الممالك الهندية) فإن الدولة التى تولت إصلاح الشئون المصرية فى هذه الأيام دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة واستولت عليها من مدة أربعين سنة ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى، فليتنظر إخواننا المصريون فإننا معهم من المنتظرين».

انجلترا والمسألة المصرية

وفي عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ كتبت مقالة عن التواء السياسة البريطانية، ختمتها بأن الحل الوحيد للمسألة المصرية لا يكون إلا على أيدي أهلها، قالت: «إن المسألة المصرية صبغت في إنكلترا عدة صبغات من يوم نشأتها، وكلما عرضت على العقول في لون خيل لها أنه أجود ما في الدن، حتى إذا مضى عليه زمان خفى وأعقبه لون جديد وهى في انتقالاتها هذه لا تزداد إلا أشكالا ولا تزيد إنكلترا في إنهاؤها إلا ارتبأكا.

«كان يود مستر (غلاستون)^(١) أن يتهج في سياسته منهج سلفائه من الإنجليز يحبو إلى مقصده بالأناة والتؤدة ويلتوى في مسيره إلى معاطف متخالفة ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة ولا يسوغه الحدق حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتفى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهد (بيكونسفيلد) من أنه لا يبيل إلى الفتوحات وهمه البعد بإنكلترا عن المداخلات في الأمور الأجنبية بالقوة الحربية، إلا أن الحوادث المصرية أُلجأت إلى العدول عن مشربه والتطور بغير طوره، فتضاربت آراؤه وتردد في أعماله وسار سيرة المتخبط ونشأ من طمعه في السياسة وتوعد السبل على حكومته في بلوغ ما تريد وحدث النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد، وهو الآن في حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى والاستقالة من المنصب وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته في قلوب أحرابه، وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقا للسعى في إسقاطه من مكانته السياسية وإهباطه من كرسى الوزارة.

«الذى أباح لمستر (غلاستون) أن يركب غير طريقه ويتداخل في مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد إلى إقرار الراحة وتخليصها من خلل النوضى، ومن إنكلترا أن تتولى إغايتها مما وقعت فيه فمد يده لوضع

(١) رئيس الوزراء البريطانية الذى وقع الاحتلال في عهدها.

قواعد العدالة وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمن إلى البلاد، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طواحي إسكندرية والحلول في ثكن القاهرة، فيكون قد كسب أجراً أو نال ملكاً جديداً أو حفظ مصلحة مهمة بأعمال خفيفة ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة، ولكن من الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية.

«تتابعت الفتن وعلا لياقاً^(١) حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال فاضطر لسوق العساكر ومداومة الحروب، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التي انتصر لها ولم يكف محمد أحمد (المهدى) عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دفنة هذه الصدمات المتتالية وأجمعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها إلى قبيلته ويهاجم الإنكليز مرة ثالثة.

«فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان وحركت الخواطر على الوزارة الغلادستونية وتخوف رئيس الوزراء من عواقب المداورات في المسائل المصرية، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام ناظر الجهادية مقامه في التعبير عن أفكار الوزارة، وفهم من بعض خطاباته أن في نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها وأن نخل في شرقي السودان وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية، فقامت الحجة بكلامه هذا لحزب المحافظين ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجائها للعدول عن سياستها في هذه الأوقات ولم يكن من رأى غلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها وتظهر مشروعها بوجه جلي، ووقع الخلاف بينه وبين ناظر الجهادية وكثير من أعضاء الوزارة على جملة مواضع في المسألة المصرية، وزاد الخلاف شدة ميل غلادستون لمرضاة الأيرلنديين وتجاخي بقية الوزراء عن رغبته، وثبت الرئيس في آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل في شيء منها، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل انقلاب في الوزارة أو فض البرلمان وأكدت قرب ذلك جريدة التيمس وجريدة الديلي نيوز وهي نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة غلادستون في خطر.

«فإذا انقلبت الوزارة الإنجليزية وخلفتها أخرى من أي حزب كان فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة؟ أقبل الصيف وصعب

على عساكر الإنجليز أن تأتي بحركات عسكرية في أطراف السودان الشرقية مدة أشهر، ويتعذر حفظ المواصلات بين سواكن وبربر والخرطوم، فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأ به التلغراف انكشف للهنديين بتكرار طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية واجترأوا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر، في هذه المدة وهي غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد (المهدى) ودعائه أن يجمعوا قواهم وينالوا من المتعة ما يتعسر على عساكر الهند مقاومته بل هم الآن على القرب مما نقول، ففى الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الإنكليزية، والبلاد المجاورة للخرطوم في ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة النوبة ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم اثنا عشر أوروبيا وستون ضابطا مصريا نجوا من عساكر (هكس)^(١)، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلى نيوز واعترف مستشار خارجية إنكلترا أن المواصلات بين شندى والخرطوم منقطعة ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر (مارس سنة ١٨٨٤) فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الإنكليزية فلا نظنه ألا يصدع جدار الهند ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوروبية في مصر (وليكن كذلك).

«ولا نظن أن دول أوروبا تسمح بضياع مصالحها في الأقطار المصرية خصوصاً بعض الدول التي كانت تسابق إنكلترا في وادى النيل وانحط مقامها فيه بالتدخل الإنكليزى الذى ليست له حدود معروفة ولا غايات معلومة، وإلى هذا تشير جريدة (الطان) الفرنسية الوزارية حيث تقول: إن إنكلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين يدي أوروبا وتوه به جريدة (سان بطرسبورج) حيث تقول إن روسيا ليس في عزمها أن تفتح بعمل في مصر فإن انكليزا اعترفت في جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع في شىء منها إلا باتفاق أوروبا.

«هذا إذا تمكنت إنكلترا أن تأخذ على نفسها إطفاء الفتن وإجهااد الثورات

(١) الجنرال هكس قائد إنكليزى كان يقود جيشاً من المصريين هزم في موقعة ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ أمام قوات المهدي.

واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها، ففي نهايته تطالب عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها، فإن عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان وهي بين ظفر وانهمام ولا تتجاوز في حركاتها العسكرية شواطئ البحر فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة إنكلترا، وإنا نرى وسيحكم الزمان لنا إن شاء الله أن حفظ حقوق الأوروبيين وضبط البلاد المصرية وإخماد نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدي أهلها. ويفعل الله ما يشاء».

عبث الإنجليز بالأمن في مصر وقالت أيضا في عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤

«إنا لله وإنا إليه راجعون لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ورد لتغراف من القاهرة إلى جريدة (استاندر) يقيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الإنكليزية) إلى اطلاق ألف ومائتين منهم من أرباب الجنائيات الخفيفة، وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين، لهذا تذوب المقل بكاء وتفتت الأكباد حزنا»^(١).

(١) في مارس سنة ١٨٨٤ استقال محمد ثابت باشا وزير الداخلية في وزارة نوبار احتجاجا على تعيين المستر كليفورد لويد Clifford Looyd وكليلاً لوزارة الداخلية وتدخله المستمر في شئون الوزارة، فقبلت استقالته وتولى نوبار نفسه وزارة الداخلية، وظل كليفورد لويد يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شونها، ومن أمثلة تدخله أنه في شهر مارس سنة ١٨٨٤ أصدر أمره بالإفراج عن عدد كبير من السجناء في السجون المختلفة بالمديريات كانوا تحت المحكمة وكثير منهم من كبار الأشقياء وتعللت الوزارة بأن السجون ضاقت بالمسجونين، وكثرت حوادث السطو والسرقات والقتل. وإلى هذه الواقعة أشارت جريدة العروة الوثقى في عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ السالف الذكر.

ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها

وفي عدد ٢٧ مارس سنة ١٨٨٤، نشرت مقالة عنوانها (سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجدد لسنة الله تبديلاً)، أوضحت فيها أن علاج أمراض الأمة مسألة تشعبت فيها الآراء، فمن قائل إن الجرائد علاج ناجع في إصلاح شئوننا، وأظهرت الشك في كفاية الصحف لهذه المهمة، وكيف أن كثيراً من المتعلمين اتجهوا إلى محاكاة الغربيين في أساليب الحياة فازدادت تبعية البلاد للمصنوعات الأجنبية، وانتهت المقالة إلى أن الواجب على الأمم الشرقية أن تتبع أصول دينها، ففي اتباعها ما يعيد إليها المجد والمنعة ويرقى بأخلاقها وينهض بحضارتها ويوحد صفوفها، قالت:

«أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم انشقت عنها بجم الغم، فإذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام، قوى الأركان، شديد البنيان. عليها سياج من شدة البأس، ومحيطها سور من منعة المهتم، تخمد في ساحاتها عاصفات التوازل، وتتحل بأيدي مديريها عقد 'نساكل، تمت فيها افتنان العزة، بعد ما نبنت أصولها، ورسخت جذورها، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني إليها، ونفذت منها الشوكة، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة، فاستغلت آدابها على الآداب، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها، وأحسست مشاعر سواها من الأمم بأن لاسعادة إلا في انتهاج منهجها، وورود شريعته، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

«وبعد هذا كله وهي بناؤها، وانتثر منظومها، وتفرقت فيها الأهواء، وانشقت العصا، وتبدد ما كان مجتمعاً، وانحل ما كان منعقداً، وانفصمت عرى التعاون، وانقطعت روابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الأمة، وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده، وإلى

توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر إليه صحواً، وذبول يظنه المرور زهواً، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبأدها. وحدثت فيهم قناعة البهم، والرضا بكل حال، ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفاً، أو يعيد لها مجدداً، عده هوساً وهذياناً، أصيب به من ضعف في المزاج، أو خلل في البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالووال، وأورده موارد الهلكة، أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته، ونكد معيشتة، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالاً من اليأس، فتغل يده عن العمل، وتقف قدماه عن السعي، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا، وقياً على ما أورثوه لأعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الأمة حدداً يشرف بها على الهلاك، ويطرحتها على فراش الموت فريسة لكل عا، وطعمة لكل طاعم.

«نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى.

وأأسفا ما أصعب الداء، وما أعز الدواء، وما أقل العارفين بطرق العلاج!.

«كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها، وهي لم تفترق إلا لأن كلاً عكف على شأنه؟ أستغفر الله، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه، نعم ربما التفت إلى كل ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لا يدرى من أي وجه يحصلها، ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها، وما ماتت إلا بعد ما سكنت زماناً غير قصير إلى ما ليس من معاليها؟ هل من السهل رد النائه إلى الصراط المستقيم؟ وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه، خصوصاً بعدما استدبر المقصد، وفي كل خطوة يظن أنه

على مقربة من الخطوة؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه، المتبهج بأحلامه، وفي أذنه وقر وفي ملامسه خدر؟.

«هل من صحة تفرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاءها، وتنتهى أطرافها، وتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبتة تجمع أهواءها المتفرقة، وتوحد آراءها المتخالفة، بعد ما تراسم جهل ويران غين، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد، وكل سهل وعمر؟ أيم الله إنه لشيء عسير يعيا في علاجه النظامي، ويحار فيه الحكيم البصير، هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء. وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه؟ إن كان المرض في أمة فكيف الوصول إلى علته وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار؟ أيمن طبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ وإلا فإن كثيراً من الأمراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر، ثم لا تظهر إلا في طور آخر، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها.

«كلا، إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة، وعوارض حياته محصورة، فكيف بمن يريد مداواة علة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها، وإن كان المشبهون بهم كثيرين، وكما أن المتطبب القاصر في الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة، لولا مساعدة الانفاق والصدقة، بل ربما يفضى بالمريض إلى الموت - كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها، ووجوه العلة فيها وأنواعها، وما يكتنف ذلك من العادات، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات، وحوادثها المتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض، ومكانتها الأولى من الرفعة، ودرجتها الحالية من الضعة، وتدرجها فيما بين المنزلتين. فإن أخطأ طالب إصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء، والوجود فناء، فمن له حظ من الكمال الإنساني، ولم يطمس من قلبه موضع

الإلهام الإلهي، لا يجزئ على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الأمر العظيم علماً أو عملاً. نعم يكون ذلك من محبى الفخفة الباطلة، وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء.

«ظن القوم في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد، وأنها تكفل إنهاض الهمم، وتنبية الأفكار، وتقويم الأخلاق، كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزه عن الأغراض؟ فبعدما عم الذهول، واستولت الدهشة على العقول، وقل القارئون والكتابتون. لا نجد لها قارئاً، ولئن وجدت القارئ فقلماً تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يبجده على غير ما يراد منه، بضيق في التصور، أو ميل مع الهوى، فلا يكون منه إلا سوء التأثير، فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً، على أن الهمة إذا كانت في درك الهبوط، فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها، مع قصر المدة، وتدقق سيول الحوادث إن هذا وحققك عزيز.

«ويظن قوم آخرون أن الأمة المتبعثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وإخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر، ورضاها بالدون من العيش، والتماس الشرف بالانتفاء لمن ليس من جنسها ولا مشربها، بل لمن كان خاضعاً لسيادتها، راضخاً لأحكامها، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا، حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب، ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق، واتحدت الكلمة، واجتمعت القوة، وما أبعد ما يظنون؟ فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر، يحمل الأمة على ما تكره أزماناً حتى تذوق لذته وتجنّي ثمرته، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة، وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه، فهل مع الضعف سلطة تقهر، وثروة تغني؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين.

«فإن قالوا: يمكن التدرّج مع الاستمرار والثبات، وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟...»

على أنا لو فرضنا مسألة الدهر، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفي لبت تلك العلوم في بعض الأفراد، والاستزادة منها شيئاً فشيئاً، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرّج يفيدها فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللاتق به، ويمكنه من القيام بإرشاد الباقي من أبناء أمته؟.

واعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغربية عنها؟! وكيف بذرت بذورها؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأبتعت وأثمرت؟ وبأى ماء سقيت، وبأى تربة غذيت؟ ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات، وإن وصل إليها طرف من ذلك، فإنما يكون ظاهراً من القول لا بناء على الحقيقة، فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها، وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها، يقوم من أفكارهم، ويعدل من أخلاقهم، ويهديهم طرق الرشاد في إفادة إخوانهم.

لعل الأقرب أن ناقل تلك العلوم - وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا، وما يعظّمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم - يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فساداً.

«ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن يتابعها من صدورهم، ولو صدقوا في خدمة أوطانهم؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطبائعها، وما مرتت عليه من عاداتها، فيستعملونه على غير وضعه، ولبعدهم عن أصله وطهرهم بحاضره عن ماضيه، وغفلتهم عن آتية، يظنونهم على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس، والحياة لكل روح، فيرومون من الصغير مالا يرام إلا من الكبير.

وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد؟ أو يزيدا على ما بها أضعافاً؟ وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها وإنما هم لها نقلة وحملة.

«فهؤلاء الصادقون إلا من وفق الله منهم بعناية الإلهية يكون مثلهم كمثل والده حنون يلذ لها غذاء، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه، فيسرع إليه المرض، وينتهي به إلى التلف، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة، يشتتون بقية الجمع، ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذلهم عنها، وما قصدوا إلا خيراً إن كانوا محلصين، ويوسعون بذلك الخصاص^(١) حتى تعود أبواباً، ويباعدون ما بين الضفاف، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء، وعنوان المصلحين، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

«شيد العثمانيون والمصريون عددًا من المدارس على النمط الجديد، ويعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصناعات والآداب، وكل ما يسمونه تمدناً، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة، وسير الاجتماع الإنساني، هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجنهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الأفكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية، فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت في سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير من الأمم؟.

(١) الخصاص: الخلل أو الخرق في الباب.

«عم ربما يوجد بينهم أفراد يتفهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها، ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء، لا تعرف غايتها، ولا تعلم بدايتها، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمات أخرى على حسب ما يختارون، ووقفوا عند هذا الحد، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجدود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم، وعرضوها معرض المباهاة، فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره، فأمتوا أرباب الصنائع من قومهم، وأهلكوا العاملين في المهنة لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة والكماليات الجديدة، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطرز الجديد، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة، وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها.

«علمتنا التجارب ونظمت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهابط الوسوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفتدتهم من تعظيم الذين قلدهم، واحتقار من لم يكن على مثالهم، شؤما على أبناء أمتهم، يذلونهم ويحقرن أمرهم، ويستهيون بجميع أعمالهم وإن جلت، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية الشمم، أو نزوع إلى معالي الهمم، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه، حتى يحى أثر الشهامة، ويحمد حرارة الغيرة، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب، ثم يشبتون أقدامهم ويكنون سلطنتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم.

«أقول ولا أخشى لو ما: لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الإنكليز - لما بارحوها أبد الآبدين،

فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك، والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم، فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب، حتى يزيلوا الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم، ويحفظون بها استقلالهم. ولهذا لو طرق الأجانب أرضاً لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدمهم، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم، كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم.

* * *

«فما الحيلة وما الوسيلة، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها، والوقت ضيق والخطب شديد؟ أى جهورى من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات؟ أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة، وتحرك الأفكار الخاملة؟ أى نفخة تبعث هذه الأرواح فى أجسادها، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المناكب، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى، الرؤوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منفضة إلى ما فوق السماء. ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال، ولا للأسماع إصغاء، ولا للنفوس رغبات، وللأهواء تحكم، وللوساوس سلطان.

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟ ماذا يجاولون والأخطار محدقة بهم بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم؟.

لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلقت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل: أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد النباهة، وضعت بعد القوة، واسترقت بعد السيادة، وخيمت بعد المنعة، وتطلب أسباب نهوضها الأول، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل، فقد يكون ما جمع كلمتها، وأنهض همم أحادها، ولحم ما بين أفرادها، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم، وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتها، إنما هو دين قويم الأصول، بحكم القواعد، شامل

لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبادئ الإجتماعات البشرية. وحافظ وجودها، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدينة.

«فإن كانت هذه شرعتها، ولها وردت، وعنها صدرت. فما تراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً، وحدوث بدع ليست منها في شيء، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين وعما أتى لأجله، وما أعدته الحكمة الإلهية له، حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر، وعبارات تقرأ. فتكون هذه المحدثات حجاً بين الأمة وبين الحق الذي نشعر بنداثة أحياناً بين جوانحها.

فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بإمكان على ما كان في بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة، وجمع الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة، ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفتحها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشئونهم، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم، وجعلوا أصول دينهم الحققة نصب أعينها، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنساني..

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططاً، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحساً، ولا يكسيها إلا تعساً.

«هل تعجب أيها القارئ من قولي إن الأصول الدينية الحققة، المبرأة عن محدثات البدع، تنشئ للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية؟! إن عجبت فإن عجبى من عجبك أشد!!

هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية

والشعائر، واتبان الدنيا والمنكرات، حتى إذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها، ونور عقولها، وقوم اخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم، وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نهبتها شريعته وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها، ونقلوا إلى بلادهم طب بقرات وجالينوس وهندسة إقليدس، وهيئة بطليموس، وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتهما في التمسك بأصول دينها.

«وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك، وافتتاح الأقطار، وطلب السيادة على الأمصار، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم، وارتفاع النفوس عن الدنيا، وبعد الغايات، وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم، وقومت أفكارهم، وكفتهم عن معطاة الرذائل وخسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها.»

تجريد مصر من قوتها الحربية

وفي نفس العدد قالت ما يأتي تحت عنوان (مقاصد إنكليزية في مصر):
«في كل يوم تلح جريدة التيمس على حكومة إنكلترا بوجود طرد العساكر المصرية الوطنية زاعمة أنه يحل من الأهالي محل القبول ويسرون منه غاية السرور وتشير على الحكومة أيضا أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعه تحصل من مداخلتها في تلك البلاد وأن ذلك من مقتضى الحزم فإن الإدارة المصرية وفروعها في حاجة إلى إصلاح حقيقي ولن يقوم به إلا رجال الإنكليز.»

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما أكتنته من السلطة على البلاد المصرية وضمها إلى ممالكها الشرقية، وما كان ذلك خافياً على أحد وإن كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل واثق أعلم.

«وما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم، ثم هي قومه في تحسين ذلك بدعواها أن أهالي مصر يفرحون منه، مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ويلسون^(١) إنما كان منشأها العزم على تقليل عدد العساكر وإقفال المدرسة العسكرية، فالمصريون وهم هم لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل يتزعجون منه غاية الانزعاج».

تخاذل الشرقيين والدعوة إلى الوحدة بينهم

وكتبت في عدد ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ (١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٠١) تحت عنوان (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) مقالة أخذت فيها على المسلمين تخاذلهم وتفرقهم وإغفالهم شئون إخوان لهم في بلدان أخرى وعدم إكترائهم لما يحل بهم ففقدوا التضامن بينهم ولم يعد ثمة تعاون بين رجال الدين والسياسة في مختلف الأقطار، وبينت أن تفرق الكلمة في الدول الإسلامية أضعف من شأنها وجعلها هدفاً لمطامع أعدائها، ودعت العلماء في جميع الأقطار الإسلامية إلى توحيد كلمتهم وتوفيق الصلات بينهم لدرء الأخطار عن أوطانهم.

«إن للمسلمين سترة في دينهم، وقوة في إيمانهم، وثباتاً على يقينهم، يباهون بها من عداهم من الملل، وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ في نفوسهم أن في الايمان بالله وما جاء به نبيهم ﷺ كفاية لسعادة الدارين. ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين، ويشفقون على أحدهم أن يبرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء، وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم، حتى لو سمع أى شخص منهم في أى بقعة من بقاع الأرض عالماً كان

(١) تقصد الوزارة المختلطة التي كان يرأسها نوبار سنة ١٨٧٨ وكان فيها وزيران أجنبيان. أحدهما إنجليزى وهو ريفرس ويلسن Revers Wilsod، والثانى فرنسى، وهو دى بلينيير De Blignieres وقد سمتها (العروة الوثقى) وزارة ويلسن لأنه كانت له فيها الكلمة النافذة. للتحقير من شأن رئيسها نوبار وتقصد بالثورة العسكرية ثورة الضباط على هذه الوزارة سنة ١٨٧٩ وأدت إلى إسقاطها.

أر جاهلاً أن واحداً ممن وسم بسمعة الإسلام في أي قطر ومن أي جنس صبأ عن دينه رأيت من يصل إليه هذه الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع، وبعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل وعلى جميع من يشاركه في دينه، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئتين من السنين لا يتمالك قلبه من الأضطراب، ودمه من الغليان، ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب.

« المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريتهم وبعيدهم ولا بين المتمدين في الجنس ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقيم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطب، ولا يباح لهم المسألة مع من يغال بهم في حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه، وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات في كل زمان.

« المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتف الحق الذي بقى له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم، فأهل بلوخرستان كانوا يرون حركات الإنجليز في أفغانستان على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعمة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنكليز في بلاد فارس، ولا يضجرون ولا يتململون، وأن جنود الإنكليز تضرب في الأراضي المصرية ذهاباً وإياباً تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة في نفوس إخوانهم المشرفين على مجارى دمائهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيهم، الذين أحمرت

أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. «تسلك المسلمون بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها بما يقضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب، فخذ مجملا عنه: إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدرجات والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الأعمال تثبتتها وتقوينا وتطبعها في الأنفس وتطبع الأنفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وترتب عليه الآثار التي ثلاثها.

«نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما يتعكس إلى مزايا عقله من مشاهد نظره ومدرجات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير، فكل شهود يحدث فكراً، وكل فكر يكون له أثر في داعية، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار، مادامت الأرواح في الأجساد وكل قبيل هو للآخر عماد.

«إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والالتزام لولا ما تبعث عليه الضرورات، وتلجىء إليه الحاجات، من تعاون الأنسباء والعصبية على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار، وبعد كروار الأيام على المضافة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه في آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكية جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية، كالإحساس بالجوع والعطش والرى والشبع، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعياً. فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكددها، أو وجد صاحب النسب من يظاها في غير نسبه أو ألباتته ضرورة إلى ذلك، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات، وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الإنساني من حيث ارتباط بعضها ببعض،

إذا لم يصحب العقد الفكري ملجئ الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تتطبع عليه الجارحة وتقرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من أشكالها، فلن يكون منشأً لآثاره، وإنما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا.

« بعد تدبر هذه الأصول البيئية، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصره إخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لاتواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الهجازي فضلاً عما يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شئون العالم الأفغاني. وهكذا، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر، أما في هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا أنساب بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه.

« كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين، أليس يعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراکش ولا لمراكش عند العثمانيين؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في الشرق؟

« هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صبح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم، ولا بلد وبلد. إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام، وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياح حق مسلم على يد أجنبي عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعادته، كانت الملكة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض

ما أضعف الالتئام بين أجزائه. فتداعت للتناثر والانحلال. وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم.

«بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يجوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الخلفاء الراشدون رضی الله عنهم، كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان، ثم اتلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام. خلافة عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الأندلس، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة.

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلاً وإذلالاً حتى أذهلهم عن أنفسهم ففرق الشمل بالكلية وانقسمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً، وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى مايليه، فتبدد الجمع إلى آحاد، وافترق الناس فرقاً كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيعة، وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبير إلى المسامع على طول من الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت، كما يكون على الأموات من الأقارب، لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة، ولا دفع الغائلة.

«وكان من الواجب على العلماء قيماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتسكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في

مشاجدهم- ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب هزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شئون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدمى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة، وليس يخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من التوازل.

«إلا أنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفت إليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شيتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة إلى من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسخها بضرره، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، وإلى الله المصير».

الجيش المصرى بقيادة الإنجليز والسياسة الاستعمارية فى مصر والهند

وقالت فى عدد ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ (١٨ رجب سنة ١٣٠١):

«دخل الإنكليز مصر فزعوا أن ما كان موجودا من الجند الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطرده ثم اختاروا من الأهالى جنداً جديداً فى عدد قليل، واستلم الرئاسة عليهم ضباطهم البارعون وبعد أشهر أتوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطننت بالإطراء عليه جرائدهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجند الجديد^(١). فهموا بذلك مرارا مع العزم على استبداله بأخر من أبناء الوطن، وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن مهمهم كتبوا أمرهم زمناً ثم عادوا للإشارة إليه تعطلاً بما ينسونه إلى بعض العساكر، وهو من دساتنهم، وآخر الأمر خفت أصواتهم وأحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لايد فى من مشورة الدول.

«فى هذه الأيام رغبوا إلى الدول فى عقد مؤتمر للنظر فى قانون التصفية

(١) تأييد لما ذكرته (العروة الوثقى) نقول: إن أول ما فكر فيه الاحتلال من التغييرات الجوهرية هو إلغاء الجيش المصرى وخلق جيش هزىل يرأسه ضباط من الإنجليز، وقد باهر الإنجليز منذ الساعة الأولى إلى إلغاء الجيش الوطنى، فأصدر الخديو توفيق فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ - بإعاز منهم مرسوماً بإلغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للثورة العرابية، وكان التعجيل بهذا الاجراء الخطير نريفة لإنجلترا لتسويغ بقاء جنودها فى مصر بحجة المحافظة على النظام فيها. وعندما أوقدت إنجلترا اللورد دفرين سفيرها بالآستانة إلى مصر وعهدت إليه وضع تقرير عن الحالة فيها. رفع تقريره فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ إلى اللورد جرانفيل وزير خارجيتها وقد تكلم فيه عن الجيش المصرى فذهب إلى أن مصر ليست فى حاجة إلى قوة عسكرية كبيرة للدفاع عنها (تأمل ا) وإن مهمة الجيش المصرى يجب أن تنحصر فى إقرار الأمن والنظام داخل البلاد، وأوحى بأن لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندي. على أن يتولى قيادته قائد إنجليزى يعاونه لفيف من الضباط الإنجليز، وبذلك وضع دفرين فى تقريره قاعدة تجريد مصر من كل قوة حربية وهى السياسة التى حرصت إنجلترا على اتباعها طول عهد الاحتلال.

وتحويله ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها، فصرحوا في لائحته المرسلة إلى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطنى رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية^(١).

«إن الإنكليز من ست سنوات جعلوا الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذى حصل فى مصر^(٢) وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذلك الانقلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا من المحال تنقيص شىء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين. واليوم عطفوا على المصريين (عظفة الأب الرحيم) وبسطوا أيديهم إلى الدول يلمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية، أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التى لا تأمن طرقها حكومة من الحكومات، إن فى تلك القسوة الأولى والمرحة الثانية كسراً عظيماً.

«الإنكليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم فى الهند، وفى خلداهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يحالفونهم فيما يريدون ببلادهم، فضيقوا على المالية فى تلك الأوقات، وأجبتوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف فى القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا إليه، وكان هذا التدبير سبباً فى الانقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة، وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جلبوا عليه من الهوينا فى الماضى إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم وأمورهم فى تلك البلاد زمناً طويلاً، ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصاً من الوعد الذى

(١) المؤتمر الذى تشير إليه العروة الوثقى هو مؤتمر لندن الذى دعت إنجلترا الدول فى ١٩ أبريل سنة ١٨٨٤ إلى عقده للمفاوضة فى شئون مصر المالية والنظر فى تعديل قانون التصفية، وقد عقد بلندن فى يونيو سنة ١٨٨٤، ولم يكن عقده لصالح مصر، بل كان مظهرًا للحماية المقنعة التى اعترمت فرضها عليها. لأن عقد مؤتمر للنظر فى شئون مصر المالية دون السياسة معناه إطلاق يد الإنجليز فى مصر على أن هذا المؤتمر قد انفض على غير جدوى إذ لم يتفق المؤتمر على طريقة تسوية حالة مصر المالية.

(٢) يقصد على الراجح خلع الحديو إسماعيل.

وعدها به مع ترقب حوادث السياسة في أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم، ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية.

«ولما كان من المحتوم في آرائهم بقاء عساكرهم في الديار المصرية، فلا بد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة. هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوربيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الإنكليز، وهى التى سلكوها في البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة، دمر^(١) الإنكليز على الهنديين في أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه، فصارت الأراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أوراجا إلى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه فعند ذلك تقدم الإنكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى راحتين ببدر الذهب، وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب، بدعوا قبل كل عمل بتفجير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والحيانة والاختلال ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الإنكليزية وقوادها وما هم عليه من العفة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الإنكليزية فأقبل الإنكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الإنكليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين، وما على الحاكم إلا أن يؤدى نفقتها، ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدعائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض، وصار الإنكليز بذلك أولياء المتباغضين

(١) دمر عليه: دخل بدون إذن أو هجوم هجوم الشر.

وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدها للحماية عنها، وفرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) إرضاء لأهل السنة والشيعة والوثنيين.

«ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الإنكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة. وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به المسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء، وبعد مضي زمان كانوا يومنون إلى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستقلها ونستوفي منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمنها لكم ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وإنما نحن خادمون لكم فيضعون أيديهم على غضرات^(١) الأراضي وفيحاثها، وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة وحصوناً منيعة كما يفعلون ذلك في تكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية، وفي خلال هذا يفتحون للأمرء أبواباً من الإسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون أقرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى ثم يذكون نار العداوة بين الحكام لتتنشب بينهم حروب فيتداخلون في أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين، وبعد هذا فلهم شئون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلت الأيدي فلا يستطيع أحد حراكاً ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من ستين طويلة وينفق على صقالها

(١) الأرض الطيبة. ويقال هم في غضراء من العيش أى في خصب وخير.

من ماله، ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً فيحولون الملك من الأب لابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه وفي الكل هم الراحون، وهذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا، ما فاجئوا أحدًا بحرب وما اختطفوا ملكاً بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهلها ولا بما تطرف به أجفانهم.

«أولئك الإنكليز باقعة^(١) العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية، فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً إنكليزياً يكون خادماً له وحافظاً للملك، فإن لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعشروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولاً عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكماً خلفاً لمن لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوروبا، هذا سر انقلاب الإنكليز على الجند الوطنى وقدحهم في سيرته بعد التناء على حسن استعداده وسعيهم إلى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة.

«أما المؤتمر فالداعى إليه أن العدوان في هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان في الأحقاب الحالية مشوه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكى والغبى، بل من أراد عدواناً فلا بد أن يحفه بمواكب من الأدلة وخفالى^(٢) من البراهين وهو ما يعبرون عنه بالحقوق والمصالح، وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو في هذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة.

«يريد الإنكليز عقد المؤتمر ويرغبون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصرى ويكفلوا للدائنين أداء حقوقهم وأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان لترخص لهم الدول

(١) الباقعة: الداہیة.

(٢) الخفالى: الجمع الكثیر.

الإقامة في وادي النيل إلى أمد فيكون تفويض الدول حجة لهم في التصرف وإدارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مظلماً بلاد أوروبا، فإذا حدث حادث حرب في الدول الأوروبية وما هو بعيد الوقوع تربعوا في تلك البلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم، هذا سر شفقة الإنكليز على المصريين وهو سر رغبتهم في وقوف المؤتمر عند شئون المالية.

«هذه المصيبة العظمى والداهية الدهاء التي تتحفز لتنقض على المصريين هل تس بحفيها جانب ألمانيا، كلا، فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهي في الشغل بما هو أهم منها، وليست دولة (أستراليا) بأقرب إلى المصائب المصرية من ألمانيا، على أن كلا من الدولتين ليس في استطاعتهما تأييد فكرها بالعمل لو مست الحوادث المصرية شيئاً من مصالحها، فإن مواقع الدولتين لا تساعدهما على الإضرار بدولة الإنكليز، أما إيطاليا فهي ساكنة الجأش بما تؤمل نواله في أفريقيا بمساعدة إنكلترا».

سوء الأحوال في مصر

ونشرت في عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م (٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ) رسالة جاءتها من مصر تصف سوء الأحوال في مصر وتذكر طرفاً مما يعانیه المواطنون نتيجة للسياسة الإنجليزية قالت:

كتب إلينا صديق فاضل من خالص المؤمنين بالقطر المصري قال:
إن مأموري الإنكليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون في تقرير الأهالي والتحليل عليهم ودس الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الإنكليزية، إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون في سعيهم إلا خيبة، لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغايات الإنكليز ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر خصوصاً وأن روح الحمية والغيرة الدينية والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالي القطر المصري فاشتدت أنفتهم من تسلط

الإنكليز في ديارهم، وقاموا مطالبهم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة، وهذا هو ظننا بل يقيننا في أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الإنكليز في رغبتهم، وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم بل ببقاء شخص منهم في بلاده وعلى مرمى نظره، فإن وجد بينهم شخص يتخذ الله هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته في أفناد^(١) ليله وأطراف نهاره فلا يتقون به. وما أخبر به الصادق أن كليفوردي لو يد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة وسخافة الرأي ليمكن بهم من إجراء بعض مقاصده لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح في تحويل الرئاسات من نصايبها فلا يلاقى ممن يستلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبي، فكيف لو كان الأجنبي لا يقاس بظلمه ظلم.

إلى أن قال الصديق الفاضل: أما الفلاحون فأحوالهم سيئة: ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد، الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم، والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم، والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل في المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلاً عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس، ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدالين في فناء ديوان الحفانية^(٢) على خراب بيوت الفلاحين هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها وهذا يتفق عليه بمبيع بعضها والآخر بالحجز على أملاكه والحكومة لا تنى في طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات.

أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصاً من تعديار الأجانب على سكانها فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى

(١) الأفناد: الطوائف.

(٢) يريد المحكمة المختلطة.

فيها على الوطني بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبي في شيء وإن كان هو المعتدى، وإن سأل الوطني أين خصمى فيقال له إنه يحاكم في محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأساً واكتفى في فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد (هذا بعض آثار العدالة الإنكليزية).

وجاء في خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التي أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الإنكليزي في إدارات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولى الأمر من المصريين.

أما الأمن فلم يبق له أثر وأما النظام فقد نقص بناؤه واقطلع أساسه واخترن الإنكليز نقاضه في خزائن الآثار القديمة، فقويت عصابات اللصوص، وجأهروا بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكد روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فإن جميعها يشتكى الملل والسامة من رواية أخبار السوء كل يوم، إلا أن من غريب الوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية (نشرت) ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم، واحداً وأربعين رجلاً فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلاً على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شيء قدير.

رئيس وزراء مصر

يستأذن للسفر من وزير خارجية بريطانيا

وكتبت في عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م (٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ) النبأ الآتي:

«إلى اللورد غرانفيل^(١) أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوروبا مدة غيبية السير بارنتج^(٢) فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد غرانفيل يطلب من الخديو أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا، هذا كله والإنكليز

(١) غرانفيل Granville وزير خارجية بريطانيا وقتئذ.

(٢) أفلين بارنتج Evelin Barning المعتمد البريطاني في مصر الذي صار اللورد كرومر.

لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم، وليس يدري ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف في الإدارة أو التحكم في أولياء الأمور، هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر إلا بإذن من غرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمراً على الخديو باستيزار فلان وعزل فلان، فإن لم تكن هذه سيادة فما هي السيادة؟».

وحدة الكلمة والتحذير من الشقاق

وكتبت المقالة الآتية في عدد ٥ يونيه سنة ١٨٨٤ (١٠ شعبان سنة ١٣٠١) تحت عنوان «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» تنعى فيها تفرق أهواء الأمم الشرقية وتدعوها إلى الاتحاد وتحذرها من الشقاق قالت:

«أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدى إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منها يطلب الآخر ويستصحبه، بل يستلزمه، وبها نحو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجمع، والكلف بسيادة لا توضع، وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوائبه (ينبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع في ضآضته (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشأ خلقاً سوياً، ثم استبقى له حياته بقدر ما يمكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله.

«كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالقلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها، فلا بد يوماً أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحي أثرها من بسيط الأرض، إن التغلب في الأمم كالالتغذى في الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت والهلاك، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها، وتصلو على من يليها لتحتزل منه ما يكون مادة لنمائها، إلا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها، إذا أحسست من أمة ميلاً إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم - إذا تصفحنا تاريخ كل جنس

واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفنائها، وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات البشرية، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظمة على حسب تطاوها في القلب، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكاتبتهم إلا عند هومهم بما في أيديهم، وقناعتهم بما تسني لهم، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلة إلا بعد ما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلاً طويلاً، وعذاباً وببلاً، ثم فناء سرمدياً.

«الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بتناقضها ومضارها، وشعور جميع الأحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم، وبما تفقده من ذلك، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته، ليجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة، ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة، ثم لا يكون نظراً عقيماً حائراً بين جدران المخيلة، دائراً على أطراف الألسنة، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكمالها بما يمكن من السعة، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر، والدرجة الأولى من الإعتبار والشئون الخاصة في المنزلة الثانية منها، ولا تقف فيما تجدد عند جلب المصالح ودرء المفاصد لأوقاتها الحاضرة، بل يأخذ العقلاء منها سبباً من التفكير، ويخترطون سيوفاً من الهممة، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونواد من المكنة، ويستخرجوا دقائن من الثروة، ويجمعوا ذلك للأمة، لصيانة حياتها إلى حد العمر اللائق بها، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشتها، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده، وأن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون. ثم تتلوه سائر الأدوار، وأولها أقصرها وهو سن الطفولة، وبدء الكمال فيها يليه، فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة.

«إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذي بيناه، رأيت في

الدهماء منهم والخاصة همياً تملو، وشيئاً تسمو، واحتراماً يقود، وعزماً يسوق، كل يطلب السيادة والغلب، فتتلاقى همهم، وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب، فيندفعون للغلب على الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه، ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقاً من الطبع لا يحتاج إلى فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر.

«هذان الأمران: الوفاق والغلب، عمادان قويان، وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية، وفرضان محتومان على من يستمسك بها، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منها عوقب من مقتته بالخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة، جاء في قول صاحب الشرع أن «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر، وجاء في نهي «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً» وأئذ من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

«هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء، ونطق الكتاب الإلهي ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا بإصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد في وجوب الإصلاح وإن أدى إلى مقاتلة الباغي فقال ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ وإنما أمر الله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى، ويصله جهنم وساءت مصيراً.

«وفي أمره الصريح بإيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة، وأخبر الصادق عليه السلام أن «يد الله مع الجماعة» وكفى بالقدرة الإلهية عوناً إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد

بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الإسلامية اسمى درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين. وعد جهوده مروفاً من الدين، وانسلاخاً عن الإيمان. ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله ﷺ «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت»، (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبدالله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفخوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمى حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعو عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه)، فهو من حلف الجاهلية، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى إليه. هذا إجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنايذة والمغابنة بين المسلمين، بل بينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقيل جوارهم بالمعروف في شرعهم، فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه.

«وأما السعي لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة، فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه، حاضرة عليهم أن يتوانوا في أداء الفروض منه، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وفي السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء في مجلدات يطول عددها - هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

«هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون إلى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا؟ كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى القلب فرضين لذاتها أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به؟ فكيف بها وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا؟ هل لنا عنر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين؟ وأيسر شيء علينا إقامتها وعديدنا متنا مليون أو يزيد؟ هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن؟

« كل هذه الرزايا التي حطت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا بيلاتها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابيرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه، لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهى كلمة الله العليا، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا في صياصيحهم، وأيدينا على نواصيحهم؟

إن لأبناء الأمة الإسلامية يقيناً بما جاء به شرعهم، لكن أليس على صاحب اليقين يدين أن يقوم بما فرض الله عليه في ذلك الدين؟ ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

ولا ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق في العمل؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة في الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الإيمان؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجمالية من أمته؟

«لا. لا. إن المخلصين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية، فأين المفر؟

«المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين، هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا ممزقة والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى من أيدينا ثم لا نبدي حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد؟

واخجلتناه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام.

«إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الإسلام، كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه في أعداد ماضية، فألهاهم عما يوحى به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزماناً عن سماع صوت الحق يناديه من بين جوانحهم، فسهبوا وما غرّوا، وزلوا وما ضلوا، ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض في الليالي المظلمة، كل يطلب عوناً وهو معه، ولكن لا يهتدى إليه، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت، وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفي تلك البقعة عشير الله من جميع أجيال المسلمين وعشائهم وأجناسهم، فما هي إلا كلمة تقال بينهم من ذوى مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها عواكن القلوب، هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية، فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعدييات الأجانب، وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي، ذهبت إلى أن الإستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدّاً يوشك أن يكون فعلاً. وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد وهيبى لهم فوراً ونجاحاً بعون الله الذى ما خاب قاصده، وهو ربي إليه أدعو وإليه أنيب.»

الوسائل لحفظ كيان الدولة

وكتبت في عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) مقالة بعنوان «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور». وأوضحت فيها أن البلاد التي أصيبت في كيانها واستقلالها كانت هي الظلمة

لنفسها إذ كانت تتق بأعدائها الطامعين فيها وتتخذ منهم أولياء فكانوا حربا عليها وأن المترفين في تلك البلاد كانوا صنائع للاستعمار، وأن القوة والعدل هما أساس الملك. فقالت:

«أهلك الله شعوبًا، وأباد قبائل، ودمر بلادًا، ولا يزال عدل الله يبدل قومًا يقوم ويأتي لكل حين بأناس آخرين، فكم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سببًا، ﴿ولا يظلم ربك أحدًا﴾. وليست أفعاله جزافًا، ولا يصدر عنه شيء عبثًا، أمر الله عباده بالسير في الأرض ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

من كان له قلب يعقل وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض في تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قص الله عليه في كتابه المنزل يحكم حكمًا لا يخالفه ريب، بأنه ما حاق بالسوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسها الضر في شيء، إلا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله، وانتهكت حرماته، ونهت أوامره العادلة، وانحرفت عن شرائعه الحق، وحرقت الكلم عن مواضعه، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات.

«كما أن للأغذية والأدوية واختلاف الفصول والأهوية أثرًا ظاهرًا في الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر في الهيئة الاجتماعية، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لحزى الدنيا وعذاب الآخرة.

«إن تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر، أما تأثير أحوال بني الإنسان في هيئة اجتماعهم، فيسهل الوقوف على سره لكل ذي إدراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء.

« ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة. وجعل التنازع والتغابن علة للضعف، وداعياً للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية، ومهيباً لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم. فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصاباً بمرض القلب، وعمى البصيرة، أدرك سر أمر الله فى قوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ وسر نبيه فى قوله ﴿ولا تفرقوا﴾ وقوله ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم﴾^(١).

« إن الله تعالى جعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه، والثقة بمن لا تتبغى الثقة به، سبباً فى اختلال الأمن وفساد الحال، فمن وثق فى عمله بمن ليس منه فى شىء، ولا تجمه معه جامعة حقيقية، ولا تصل به رابطة صحيحة، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سره، ولا ما يجعله على بذل الجهد فى جلب منفعة، ودفع المضار عنه، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله، وإن كان مليكاً ضاع ملكه، أو أميراً بطل أمره، والحوادث شاهدة، وأحوال المغرورين ناطقة، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى فى قوله ﴿لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ وقوله ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر﴾ وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين.

« لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه، وواجب يلزمه القيام به، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا، ويعد لها مآلاً صالحاً فى الآخرة، وهو إنسان له قلب واحد، لو جعل معظم همه فى شىء فاته سائر الأشياء، فلو توغل فى الشهوات، وبالع فى الترف، وبطر فيما أنعم عليه، فقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه، وحرّم من منافعه، وحل به من عقاب الله أشد الوبال، وخسر الدنيا والآخرة معاً، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره، واحترق

(١) جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم.

بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته، أو يواظنه في مدينته..

وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كهاء^(١)، وأن فيها قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾.. ﴿حتى إذا أخذنا مترقيهم بالعذاب إذا هم يجأرون.. لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾.. ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون﴾ هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.

«ما أوقى الإنسان من العلم إلا قليلا. لا يمكن الإنسان وحده أن يحيط بوجود المناقع الخاصة بنفسه، ولا أن يطلع على منافع فوائده ليكسبها، أو يكشف مكامن مضاره فيتقنها، خلق الإنسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر.

«هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة، فكيف لو كان شخص ولاء الله رعاية أمته، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع. لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء، وهو أشد افتقاراً إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه، وقد أمر الله نبيه المعصوم عن الخطأ بالمشورة تعليماً وإرشاداً فقال ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وقال فيما امتدح به المؤمنين ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم؟ وأي بصيرة لا تهتدى إلى هذا المنهج القويم؟ ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾.

(١) الأكمة: من يفقد نور عينيه منذ ولادته. والأثنى كهاء.

«إن وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لأطماع الطامعين، وأن الحرص المودع في طباع البشر يحرك جيرانه كل أن للسطوة على ممالكه ليدلوا قومه، وليستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم، وثمار كدهم، ويعنحوها أبناء جلدتهم. فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله، والحكام النائبين عنه في إيالاته، وقواد جيشه، وعلى كل أرباب الرأى، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية. فلو فرطوا في اعداد لوازم الدفاع، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم، ويقوى شوكتهم، بأى وجه كان، ومن أى نوع كان، فقد عرضوا ملكهم للهلاك، وألقوا بأنفسهم في مهاوى الأخطار.

«هذا مما يفهمه الأبله والحكيم، ويصل إليه إدراك الجاهل والعليم. وهو سر الإفصاح والإيهام في قوله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أمر بإعداد القوة ووكلائها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة، على حسب ما يقتضيه الزمان. وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبه الغافل، ويذكر الذاهل، ﴿فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾.

«إعطاء كل ذى حق حقه، ووضع الأشياء في مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها، مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويحكم دعائم السطوة، ويحفظ نظام الداخل من الخلل، ويشفى نفوس الأمة من العلل. هذا مما تحكم به بداهة العقل، وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والأرض، وثبت نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناء واضمحلاله، كذلك الجور في الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل، وكثرت النهى في الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولى من توجه إليهم الأوامر والنواهي في هذا الباب، العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ وهي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير.

«من سار في الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب، علم أنه ما انهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجده إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتحلل العنصر الأجنبي، أو استبداد في الرأي، واستنكاف عن المشورة، وإهمال في إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها، ووضع الأشياء في غير مواضعها، فيكون جور في الحكم، واختلال في النظام، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

«لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الإسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا، وأرشدنا إليه، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾.

فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، ان يهتموا بتبنيه النافلين عما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين، ويعلموا الجاهل، ويزعجوا نفس الذاهل، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آباؤهم، وليستلفتهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا، ويحذّرهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي وأصحابه، ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره ﴿فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

«على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله ووعدته الحق في قوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾. هذه وظيفة العلماء الراسخين. وما هم بقليل بين المسلمين. ولا نظّمهم يتهاونون فيها فرض الله عليهم. ووكل إلى ذمتهم. وهم أمناء الدين وحملة الشرع

ورافعو لواء الإسلام. وأوصياء الله على المؤمنين. أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بإرشادهم».

ولاء الخديو توفيق للاحتلال

وكتبت في عدد ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ (٢٢ شوال سنة ١٣٠١ الهجرية الآتية بعنوان توفيق باشا).

«يتوكأ الإنجليز على توفيق باشا في حركتهم بمصر ويتخذونه آلة لتخريب بلاده وهدم ملكه، وما يكون من شر ينسبونه إليه وما عساه يوجد من خير يصلون نسبتبه بهم ويردونه إلى أنفسهم. وفيما بين ذلك يبعضون إليه الولاية الإسلامية ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية، وهو يميل معهم ويمدهم في مقاصدهم ويطوع البلاد لهم بما بقى له من السلطة الصورية، كما يتظاهر بالتدين والمحافظة على الصلوات، فإن كان باطنه يطابق ظاهره وكان معتقداً بدين الإسلام فعليه أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه، فإن لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته ويقاوم الإنكليز بما في جهده ويموت شهيداً في سبيل دينه ووطنه، وإلا فليس يعنى عنه من الله شيئاً أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناقم على الإنكليز كاره لوجودهم في بلاد مصر ويود لو يخرجون كما أنبأنا الأخبار الخصوصية من القطر المصرى.

إذا تمادى توفيق باشا في سيره الملتوى فعلى المصريين أن لا يقفوا صيداً في يد الإنكليز بهذه الحباله البالية وهذا الفخ الواهن ولينظروا في شئونهم وما توجبه عليهم فروض دينهم، وإلا فما الله بغافل عنهم.

وفي هذا المعنى كتبت الجريدة المقالة الآتية في نفس العدد:

«كثيراً ما أتينا في جريدتنا على بيان الإنكليز في تملك الهند وتذليلهم لأهاليه وذكرنا أن سيرة الحكومة الإنكليزية في افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار فيقتلون ويقتلون حتى يتغلبوا على

من يريدون، وقتلنا إن الإنكليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة ولا صرف أموال وافرة وإنما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة، يدخلون في كل بلد أسوداً ضارية في جلود ضأن ناغية، يعرضون أنفسهم في صورة خدمة صادقين وأمنة ناصحين طالبين للراحة مقومين للنظام، نادينا مراراً بأن الإنكليز إذا أرادوا التدخل في ملك للشرقيين ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير وأن وجوده في الملك يبطئ سيرهم إلى ما يقصدون بادروا إلى التشويش عليه، فأما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ويشيروا عليه أحقادها أو يغفروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الأمر. أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة ثم ينصبوا بدله إما ضعيفاً أحمق وإما صبيلاً لم يبلغ الرشد، إما من أبناء المالك أو أقاربه - ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه وبيلفوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة في مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق مع إصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا في بداية العمل.

إلى أن قالت:

من أدق رجال الحكومة الإنكليزية في فن الحيلة وأمهرهم في صناعة الخدعة وأطولهم باعاً في النفاق وأحذقهم في اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها وأشهرهم في عداوة المسلمين ذلك اللورد المحموم (نور ثبروك)^(١). كان هذا الرجل البارع حاكماً في الهند. فأذاق أهاليه مر العذاب في كئوس المحبة والوداد. كم خرب بيوتا وقلب عروشاً وكم خفض ربيعاً وأذل عزيزاً وهو في جميع سيئاته يبكي بكاء الشفقة ويسكب دموع الرحمة على الهندين ويقول إنني أول إنكليزي تمه رفاهة أهل الهند وانني وحيد بين الإنكليز بمحبة الهنود والسعى فيما يعود عليهم بالصلاح والتجاح وانني أستغفر الله إن كنت قصرت في عمل يوصل بهم إلى الفلاح، وينادي في الهندين بقوله: وأأسفاه إنكم إلى اليوم ما عرفتموني ولا أحظتم بما حواه ضميري من إرادة الخير لكم هذا هو الكاهن الحاذق في

(١) اللورد نورثبروك Lord Northbrook حاكم الهند العام السابق وقد أوفدته إنجلترا إلى مصر في أغسطس سنة ١٨٨٤ ومهمته درس الحالة في مصر وتعرف «النصائح» التي ترى لهذا للحكومة المصرية لكي تستأنف بحث ما أخفق فيه مؤتمر لندن. وقد أكرم الخديو توفيق وفادته. وأخذ يزور المصالح والدواوين ويستقبل الموظفين والأعيان كأنه الحاكم بأمره.

وعظه «ودونه في النفاق عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في الإسلام» إن الحكومة الإنكليزية عرفت قدره في براعته ومعرفته بوجوه المكر وخبرته بأحوال الأمراء الشرقيين وسعة علمه بكيفيات التصرف في عقولهم وأهوائهم وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون - واعترفت له حكومته بصدق الطوية في معاداة المسلمين. لأجل هذا قررت أن تبعثه على مصر وعزمت على إرساله إليها مفوضاً من قبلها يفعل ما يشاء، ولكن لا نظن حيالته الخداعية تصرع قطانة المصريين وتأخذ عقولهم، فإن تسنى له نجاح ورضى المصريون على أنفسهم عار النذل ووصمة الضيم فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آله في جميع أعماله يستخدمه لإدخال مصر في ملك الحكومة الإنكليزية، يلقنه الأوامر السامية ويلهمه الإيرادات السنوية لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل إخوانهم وفتح البلاد الشائرة وإقرار السلطة فيها للحكومة الإنكليزية، فإن تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية ابنه عباس لكونه ولدًا صغيراً لم يبلغ الحلم واستند في ذلك إلى الفرمانات السلطانية «بمخترمونها إذا وافقت أغراضهم» وجعل نوبار باشا ديواناً له، نوبار باشا لا يقصر في هذا العمل ولا يألو جهداً في إبلاغه إلى نهايته، نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ولا هو مصرى فيخشى على وطنه ولا هو عربي فتأخذه النعرة على جنسه، وبهذا الطريق ينال سلطة في القطر المصرى مدة لا تنقص عن الباقي من عمره ويكون في أمان من العزل تحت ظل الحكومة الإنكليزية.

إلى أن قالت:

هذا هو نور ثيرونك الذي تريد حكومة إنكلترا أن ترمى به مصر، وهذا هو الإصلاح الذي يقصد إجراءه فيها، لكن رجاءنا في المسلمين وأملنا في المصريين وقوة إيماننا بوعود الله وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية وتألب الدول على معاكسة الحكومة الإنكليزية، كل هذا يبشرنا بخيبة هذا الغادر في قصده. والله لا يهدي كيد الخائنين.

وفي عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) كلمة جاء

فيها تحت عنوان:

تعظيم توفيق باشا نور ثبروك

«ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نور ثبروك إليها. وحصلت الملاقاة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم إليه رقيباً من اللورد (غرانفيل) يؤذن أن اللورد نورثبروك هو الوكيل الأعلى للحكومة الإنكليزية في القطر المصري ويطلب من الحكومة المصرية أن تساعد في حل المشاكل الحالية خصوصاً المسائل المالية، فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكمال الرضا بجميع مطالبه.

«يظهر أن توفيق سر بقدم اللورد (نورثبروك) وإن لم يكن بينه وبينه معرفة خصوصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمله في بلاده، هذا يمكن ولكن ليت شعري ماذا يجني هذا الخديو الشاب من مراعاة هذا المخادع وماذا يصيبه من سهام حيله؟ بيننا في بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفاً من أعماله في الهند، ونذكر الآن عملاً آخر منها:

طلب وهو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنكليزية من مملكة (كابورتال) وهي مملكة واسعة تتاخم لاهور و (بتيالة) فادعى على مهرجتها (ملكها) أنه مجنون وهو في رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وسجنه في (بكسو) حتى مات حتف أنفه وقيل بالسّم، وكان هذا الملك المخلوع ابن «راندهيرسك» ونصب بدله ولدًا صغيراً من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول في حوزة الحكومة الإنكليزية.

«كانت الحكومة الإنكليزية تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد، فكان أولئك المساكين يسلون أنفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها، فلما جاء اللورد (نورثبروك) حاكماً في الهند رآها كثيرة عليهم فنزعها من أيديهم وحرّمهم من هذه المنفعة الزهيدة، هذا اللورد هو الذي طلب (سميع الله خان) الدهري ليكون معيناً له في مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنكليز، وهو الذي أعطى المبالغ الوافرة للمعلم

(بالمر) لينثرها بين العرب حتى يثوروا أيام الحرب المصرية، كما أخبرنا الثقة الصادق من لوندرة، ولكن العرب قتلوا رسوله وشنق به أشخاص في مصر بلا جرم، هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدمه، صان الله الأراضى المصرية المقدسة من شر هذا المحتال».

سنة الله فى الأمم

ونشرت فى عدد ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١) مقالة تحت عنوان: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

«تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون».

هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعده؟ هل كذب الله رسله؟ هل ودع انبياءه وقلائم؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال؟
نعوذ بالله !!

هل أنزل الآيات البينات لقواً وعبثاً؟ هل افترت عليه رسله كذباً؟ هل اختلفوا عليه إفكاً؟ هل خاطب الله عبده برموز لا يفهمونها وإشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم إليه بما لا يعقلون؟ نستغفر الله !

أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذى عوج، وفصل فيه كل أمر، وأودعه تبياناً لكل شيء؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، هو الصادق فى وعده ووعيده، ما اتخذ رسولاً كذاباً، ولا أتى شيئاً عبثاً، وما هداننا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى ﴿لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

«يقول الله ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾ ويقول ﴿وقه العزة لرسوله وللمؤمنين﴾ ويقول ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ ويقول ﴿ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾.

هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلًا، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل، إلا من ضل عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه، هذا عهده إلى تلك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة، ومهد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيامة، وما جعل الله لمجدها أمداً، ولا لعزتها حداً.

« هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى نروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالى الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للربع منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير في سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده. هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فأخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلمهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر في همتها اختلاف الأهوية، ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها احكام القوانين ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم في فنون السياسة.

كانت تطرق ديار القوم فيحترقون أمرها، ويستهيون بها. وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تززع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماها من لوح المجد، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه العصاة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك، ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعفها ما لم تتله أمة سواها، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً في الدنيا، وسعادة في الآخرة.

« هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مائتى مليون من النفوس، وأراضيها آخذة من المحيط الأتلاتيكى إلى أحشاء بلاد الصين، تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار

رحية، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلووبة، يتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعباً شعباً، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى أن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملعة، ويسون في كربة مدهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم.

«هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهدن صاغرات، استيقاء لحياتهن، وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية، باللمصية وبا للرزية!!

«أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل.

ما سبب هذا الهبوط، وما علة هذا الانحطاط؟ هل نسيء الظن بالعهود الإلهية؟ معاذ الله! هل نستئيس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا؟ نعوذ بالله!

هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ما أكده لنا؟ حاشاه سبحانه لا كان شيء من ذلك ولن يكون، فعليتنا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سنناً متبعة ثم قال ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

«أرشدنا الله سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهية وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمتهم، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظام المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم

في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق. فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

«هكذا جعل الله بقاء الأمم وغيابها في التحلى بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها. سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالى في الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال.

«علينا أن نرجع إلى قلوبنا، وتمعن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان؟ هل نحن نقتضى أثر السلف الصالح؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه، وبدل في أمرنا سنته؟ حاشاء وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أدى أسلافنا ما يجبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تعن عنا شيئاً، فبدل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية.

نبذنا أوامر الله ظهرياً، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإناية إليه.

كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يفتصبون ديارنا ويستدلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى في أحد منا حراكاً؟

«هذا العدد الوافر، والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة، وإن كان غذاؤه الذلّة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان.

تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً، وكاد يقطع ما بيننا، لا يحن أخ لأخيه، ولا يهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب احدانا في الآخر إلا ولا ذمة، ولا نحترم شعائر ديننا، ولا ندافع عن حوزته، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبنا أمرنا.

«أحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة، ولا يس سواد القلوب؟ هل يرضى الله منهم بأن يعبدوه على حرف؟ فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟ هل ظنوا أن لا يبتلى الله ما في صدورهم، ولا يحص ما في قلوبهم؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا ييخلون في سبيله بحال، ولا يشحون بنفس؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الإيمان، لا بحاله ولا بروحه؟

«إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً، ويقولون في إقدامهم: حسبنا الله ونعم الوكيل، وكيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حتى يرزق عند ربه؟ تمتع بالسعادة الأبدية في نعمة من الله ورضوان؟ كيف يخاف مؤمن من غير الله، والله يقول ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

«فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين، وما جعله من خصائص الإيمان، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا.

يا سبحان الله، إن هذه أمنا أمة واحدة، والعمل في صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز، واجماع الأمة سلفاً وخلفاً، فما لنا نرى الأجانب يصلون على البلاد الإسلامية صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الإيمان أهلون بكل أرض، متمكنون بكل قطر، ولا تأخذهم على الدين نكرة، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية؟ ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي، وتتخذوه إماماً لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح.

ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقروا منه ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر

فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴿١٢٠﴾.

ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية؟ نزلت في وصف من لا إيمان لهم. هل يسر مؤمناً أن يتناول هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة، أو غرَّ كثير من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم، وما حسنته لديهم أهواؤهم؟ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

«أقول ولا أخشى كثيراً: لا يس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الإيمان، لا يراعى في ذلك عذراً ولا تعلقة، وكل اعتذار في العقود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله. وما نحن نرى الإنكليز دخلوا أرض مصر وأخذوا يجولون في أطرافها ويهدون السبل لأمتلاكها، ومع ذلك لا نرى من أهلها إقداماً فعلياً لمصادمة القوة الإنكليزية، مع أن كل واحد منهم يزعم نفسه في أعلى درجات الإيمان، ويزيد المتعجب عجباً أن مصر يسكنها من المسلمين أقوام مختلفو الشعوب والأجناس، ألا يوجد «حلبى» يكون آية لما كان عليه أسلافنا ودليلاً على أن تلك الروح الطيبة لم تنزع منا وأن القيرة والحمية وشهامة الإيمان لم يزل بها مقام من نفوسنا. لا ريب عندنا أن آية حركة جزئية كانت أو كلية في أى قطر من الأقطار التى لها تعلق بحكومة الإنكليز يوجب إحباط أعمالها وتنكيس أعلامها وخيبة آمالها.

أما لو فانت المسلمين هذه البركة التى يعانى الإنكليز ما يعانون فيها فليستروا وجوههم بقتاع الحجج ولا يغشوا أنفسهم بدعوى الإيمان واتباع القرآن فإنما هى ألقاظ على طرف اللسان لا تحكى عن عقيدة فى الجنان.

«مع هذا كله نقول: إن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بعبائيه الشريفة، واستلفتوهم إلى عهد الله الذى لا يخلف، لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نوراً يبهر الأبصار، وأعمالاً

تخار فيها الأفكار، وأن الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الألام تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوجد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريباً، فإن فعل المسلمون واجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم الأوبة، ونصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كله: جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾.

الوهم

من مقالة نشرت في العدد نفسه:

«ألا قاتل الله الوهم. الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ويجلي المفزعات، وطوراً يكون ممثلاً للمسرات حاكياً للمنعشات، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة، فهو مجلبة الشر ومنقاة الخير.

الوهم يمثل الضعيف قوياً والقريب بعيداً والمأمّن مخافة والموتل مهلكاً، الوهم يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه، يمثل الموجود معدوماً والمعدوم موجوداً، الوهم في كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه، الوهم روح خبيث يلبس النفس الإنسانية وهي في ظلال الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسلطت على الإرادات فتقود الواهين إلى بيداء الضلالة، فيخبطون في مجاهل لا يبتدون إلى سبيل ولا يستقيمون على طريق.

«كان الإنكليز أمة مجتمعة القوى مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، وذلك في زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعواندهم، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحراً وكرامة، فانتهاز الإنكليز تلك

الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية التي أثارَت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الإنكليز من حبائل الخيلة والمكر، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلهم عما في أيديهم بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيتهم وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغنت الأمة الانكليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفعت بما ملكت، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة وأنحاء شاسعة وقواها منقسمة على تلك الأقطار متوزعة فيها، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزرًا من العدد والعدد، وهي في جميعها ضعيفة واهنة لا تستطيع ذودًا ولا دفاعًا، وإن أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر على أنفُس الأمة الإنكليزية، فهي دائبًا في رجفة على أملاكها في خيفة من تمزقها وضياعها، تتوجس من كل حادثة في العالم وتقلق لأية حركة تحدث في الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب يحدوثها زلزلة في قوى الإنكليز المتوزعة في الانحاء الضعيفة في جميع الأرجاء.

«ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفيًا على الشرقيين محبوبًا عنهم بحجاب الوهم.

يمثل الوهم لكل شرقي أن الإنكليز على ما كانوا عليه في ماضى زمانهم، فمثل الشرقيين مع الإنكليز كمثل مار في مغارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقة فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهها سبعا ضارياً ومفترسا قويا، فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول إلى غايته، وربما صادف مهلكة في ضلاله ومثلفة في غيه، بل لا نخطيء إن قلنا إن هذا الوهم كان متسلطاً على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين، فالأوروبيون كانوا ينظرون إلى انكلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا، وكانت حكومة انكلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحس الإنكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائبًا في ستره ولا ستار اكتف

من الوهم، ولهذا نراهم في كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزارون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام فتحول أنظار الناظرين، وتغشى بصائر المستبصرين، فتحول دون استطلاع الحقيقة، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الإنكليز.

« ذهب الإنكليز إلى الهند في قوى مجتمعة، وتسايقوا مع فرنساويين وهولاندا والبرتغال في مدن الأراضى الهندية الواسعة، فحازوا في هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد، أو طيب قلوبهم، فمالت النفوس إلى الإنكليز اغتراراً وتغلبوا على تلك البلاد، واستقلوا بأمرها شيئاً فشيئاً وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالكهم، أما نحن (الإنكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم.

ثم إننا نرى للإنكليز الآن في الهند الأصلية والهند الصينية والبرمان^(١) سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الإنكليزية طالب للتخلص منها بفضل أية سلطة سواها ظالمة كانت أو عادلة، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الإنكليز ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنكليز في الكبرياء والجبروت، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها وشدة ميلهم للتخلص من تلك السلطة الظالمة، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبعوضة إلا خمسون ألف جندي إنكليزي، مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندي، هذا فضلاً عما يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الإنكليزية وزال استقلالها بالمرّة، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة في قبضه

قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ونظروا إلى ضعف الإنكليز في الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم وملجأ النجاة تحت أرجلهم وعلموا أن استقلالهما لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ولا سفك دماء غزيرة.

«يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنكليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عده رعية دولة من الدول ويقس شأنها وقوتها في تلك الأطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه في بريطانيا أو تقترب منها، ولم يلتفت إلى أن جسم الإنكليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع)، تفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم تبق لهم في موضع قوة، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه، يترقبون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين.

لو التفتت تلك الدولة التي تهاب إنكلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ومشورة، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لولا حجاب الوهم، قاتل الله الوهم».

التنبية إلى مقاصد الإنكليز

كُتبت في آخر عدد ظهر من العروة الوثقى (العدد الثامن عشر) الصادر في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١) مقالة بعنوان (عباء بعض الناس في مصر أو تعاميمهم عن مقاصد الإنجليز) وجهت فيها الخطاب إلى بعض من خدعوا في وعودهم. قالت ضمن ما قالت:

«ظهرت مقاصد الإنجليز وانكشفت مضمراتهم، وإن كان بعض الغفل في تلك البلاد المنكودة الحظ (لا نريد نوبار باشا فإنه ضارب في طريقه ذاهب في

مقاصده) يتزلف للإنجليز بكل ما يمكنه لينال بهم ما أشرنا إليه مراراً، تسول لهم أنفسهم إما جهلاً وإما طمعاً، أن يميلوا مع ربح الحكومة الإنجليزية لأنهم يظنون أنها لا تقصد بالبلاد المصرية إلا خيراً، فإذا فاض الخير في البلاد وشملت الراحة جميع أُنحائها انجلت العساكر الإنجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعت إلى بلادهم.

«والعجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك يتجول في البلاد المصرية ويستدعى إليه العمدة والمشايخ ويذاكرهم فيما يريد طوراً بالسِرِّ وآخر بالعلن، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد، أما كان يكفي هذا السير لدرك الحقيقة؟ فيم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيل لهم ما يظنون؟ ألم يكشف الغطاء عن نية السوء سؤال اللورد نورث بورك للشيخ العباسي المهدي شيخ الجامع الأزهر^(١) ومفتي القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله: ماذا تعلم من أفكار الأهالي لو أردنا (نحن الإنكليز أن نديم الإقامة في البلاد؟ فلو لم يكن لدولة الإنكليز عزم على تملك وادي النيل فكيف كان هذا السياسي الداهية بيتدر شيئاً من أجل المشايخ وأعلامهم مقاماً في القطر المصري بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إثارة الظنون وإحداث الريب؟!

أجابه حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الإنكليز في معاهد مصر، فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء، ولكن كان استدراكه مناقضاً لما دل عليه أول سؤاله وما الإنكار إلا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلاً عن الراشدين، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكنه مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى إذا سد في وجهه باب حاول قرع باب آخر.

«أما آن هؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد، أى إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل

(١) هو الشيخ محمد العباسي المهدي شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية صاحب الفتاوى

ما يسمى جنوداً مصرياً ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية؟ إن اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضباطة. ما هذا الاهتمام إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصر؟ هذا سبيل سلكه الإنكليزي في جميع فتوحاتهم كما نهبنا عليه مراراً وأن هذا الكيس الداهية الإنكليزي لا يجيد عنه بعد ما سلكه أسلافه قبله وبقاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره، يجتهد بما في وسعه لطرده العساكر المصرية وإبدالهم بالضباطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضباطة المصريين بأقوام من الجيوش الإنكليزية البريطانية أو الهندية تعلقاً بأخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدمة النظامية، وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة، وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الإنكليزية سائدة في جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية».

احتجاج العروة الوثقى

احتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ ذى الحجة لسنة ١٣٠١) فكان هذا العدد آخر ما صدر فيها، وكان أول عدد قد ظهر في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤. فكانها استمرت في الظهور سبعة أشهر.

ويبدو أن تهاون الشرقيين في الإقبال عليها وإمدادها بالعون والتأييد كان السبب الأول لاحتجاجها، وكان لمحاربة الإنجليز أثر كبير في احتجاجها، فقد منعت دخولها إلى مصر والهند كما سلف القول، فالأمم الشرقية والسياسة البريطانية يتحملان معا تبعه وقف هذه الصحيفة التي كانت أقوى صرخة أيقظت النائمين ونهت الغافلين، ومع قصر المدة التي عاشتها، فإنها عملت في بعث الشرق أكثر مما عملت صحف أخرى في عدة سنين، ولقد ظل أثرها بعد احتجاجها باقياً مدوياً في الأذهان كلما توالى الأيام والأعوام، ولا ريب أن للحكيم الأفغانى والأستاذ الإمام الفضل الأكبر فيها بلغته هذه الصحيفة من المكاتبة الرفيعة والأثر الخالد في نفوس الشرقيين جميعاً.

انفصل الحكيمان

بعد أن توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور انفصل الحكيمان وعاد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى بيروت ثم إلى مصر سنة ١٨٨٩ (١٣٠٦ هـ)، وانقطع عن الكفاح السياسي وانصرف إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، أما جمال الدين فاستمر على الكفاح السياسي إذ أنه يراه الأساس لنهضة الشرق.

ويبدو أن اختلاف الحكيمين في هذا الصدد قد بدأ في باريس فقد أشار الأستاذ الإمام على جمال الدين أن يذهبها إلى مكان بعيد غير خاضع لسكان دولة تعرقل سيرها، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء ويختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية، ومن يتوسمان فيهم الخير، ثم يربيتهم على منهج قويم يختارانه، ويعدانهم للزعامة والإصلاح، ولكن جمال الدين لم يقبل هذا الرأي وعده تراجعاً عن الكفاح السياسي وتبسيطاً للعزيمة، ورجح رأى جمال الدين مؤقتاً فأصدر الحكيمان جريدة العروة الوثقى، وبدأ من أسلوب الجريدة أن الأستاذ الإمام اقتنع برأى أستاذه، على أنه حين عاد إلى مصر سنة ١٨٨٩ رجع إلى فكرته التي أبدتها في باريس وانقطع إلى الإصلاح الاجتماعي والديني، وبلغ فيه الذروة، ولقد قلت في هذا الصدد سنة ١٩٢٧ في كتابي عن (الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي) «وتقطعة الضعف في شخصية (الأستاذ الإمام) هي تخلفه عن الكفاح السياسي، واختلافه في هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغاني، ولقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته إلى مصر سنة ١٨٨٩، فترك أستاذه يعاني متاعب الكفاح السياسي وآلامه ومرارته وكان من قبل عضده وساعده الأمين، وإنك لتلمح تراخي الصلات بينهما - حتى الصلات الشخصية - منذ أن عاد إلى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الإمام^(١) فإنك

(١) تاريخ الأستاذ الامام للسيد محمد رشيد رضا الجزء الثاني.

لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها إلى السيد في محنته ومنفاه، بل إن جمال الدين توفي سنة ١٨٩٧ فلا تجد للأستاذ الإمام كلمة في رثاء أستاذه الروحي والفلسفي وزميل جهاده في (العروة الوثقى). وهذه الناحية هي أثر من آثار الاحتلال^(١).

جمال الدين ورنان

جرت لجمال الدين في باريس أبحاث مع الفيلسوف الفرنسي أرنيست رينان Ernest Renane في العلم والإسلام، فقد ألقى رينان في (السوريون) محاضرة في هذا الموضوع قال فيها: إن إنتاج الأمم غير العربية أكثر من إنتاج الأمم العربية، وإن التمدن أكثره من إنتاج الفرس وغيرهم دون العرب، وزعم أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة، والبحث الحر، وإن من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه، أو كان في حماية خليفة أو أمير من المؤمنين، وقد نشرت هذه المحاضرة في جريدة الديبا الفرنسية Journal des-Débats وكان ممن رد عليه رئيس البعثة المصرية بفرنسا حينذاك.

ورد جمال الدين على هذه المحاضرة، ونشر رده في جريدة الديبا، وخلاصة رده: أن ما ذكره رينان عن الإسلام ليس هو من طبيعته ونتيجة تعاليمه، بل من عمل بعض من اعتنقوا الإسلام في بعض العهود، وإن الاضطهاد الذي قال عنه رينان قد وقع مثله في الأديان الأخرى، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن، وأما عن قوله إن الإسلام لا يشجع العلم، فإن الكل يعلم أن الشعب العربي خرج من حال البداوة التي كان عليها قبل الإسلام وأخذ يسير في التقدم العلمي والفكري ويسير في هذا المجال بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية، فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب وفي كل البلاد التي انضمت لسيادتهم.

وقد أكبر رينان هذا الرد، وألقى به وتباحث وإياه في الموضوع وأعجب رينان بعبقريته وسعة علمه وقوة حجته وقال عنه «كنت أتمثل أمامي عندما كنت

(١) النورة العراقية والاحتلال الإنجليزي ص ٥٤٢ الطبعة الأولى.

أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد، أو واحدًا من أساطين الحكمة الشرقيين» وقال إن جمال الدين الأفغاني خير دليل يمكن أن نسوقه على النظرية التي طالما أعلنها وهي أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس.